دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

حركة الدوّارين (الريفيين الأوراسيين) في نوميديا أو محاولة ثورة اجتماعية في شمال إفريقيا (٣٢٠م – ٤١١م)

أ.د. الربيع عولـمي
أستاذ التاريخ والآثار القديمة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة الحاج لخضر باتنة – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

كانت نوميديا، في عهد الإمبراطور "قسطانتيوس" (Constantius) وقبيل منتصف القرن الرابع الميلادي، مسرحا لأحداث عنف واضطرابات خطيرة، كما دلت على ذلك المصادر المتعلقة بالدوناتية. أثارها "الدوّارون" (Circumcelliones) الجناح العسكري للدوناتية في الأرياف النوميدية، وذلك بمهاجمة مزارع كبار الملاك والأسياد والدائنين، وعارضوا بقوة تطبيق الإجراءات التي اتخذها الامبراطور ضد الكنيسة المنشقة (الدوناتية). تهدف هذه الدراسة إلى البحث في مسألة الدوّارين وحركتهم الثورية، من خلال نصوص القديسين أوبطا الميلي وأوغسطين، ولا سيما ما تعلق بأصولها، وطبيعتها وتفسير نشاطاتها في نوميديا. إذ يبدو أن "المصارعون" (Agonistici)، كما عرفوا أنفسهم، ينحدرون من مجموعات الشهداء المتطوعون الدوناتيون الذين يقاتلون الطوائف الوثنية التي ندد بها "قسطنطين" نفسه منذ سنة ٣١٥م. كما واجه الدوّارون "الريفيون الأوراسيون" أيضًا السلطة الزمنية الرومانية وحليفتها الكنيسة الكاثوليكية. فقد ذكرت المصادر الكاثوليكية (أوبطا الميلي وأوغسطين خاصة) بأن "الدوّارين"، كانوا يشكلون في بداية القرن الرابع الميلادي رؤوس رماح الكنيسة الدوناتية وعساكرها ضد الكنيسة الكاثوليكية. وبذلك أصبح جزءًا هامًا من الجدل القائم بين الدوناتيين والكاثوليك يدور حول العنف بين الطرفين. فالكاثوليك يرون في عمل "الدوّارين" اضطهاد لكنيستهم، والدوناتيون والدوّارون يرون في تدخل السلطة الرومانية إلى جانب خصومهم اضطهادا لفريقهم. هذا ما يدفعنا لطرح العديد من التساؤلات حول هذه المواجهة: لماذا كان الدوّارون دوما توّاقون الى العدالة الاجتماعية؟ وهم الذين نصّبوا أنفسهم فرسانا محصّلون للحقوق المهضومة؟ ما علاقتهم بالكنيسة الدوناتية؟ لماذا كانوا يبحثون عن الاستشهاد الطوعي؟ كيف قاوم الدوّارون الكنيسة الكاثوليكية وحليفتها السلطة الزمنية الرومانية خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين؟

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٨ أبريل ٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر: ١٣ مايو ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

الدوارون؛ نوميديا؛ السلطة الرومانية؛ الانشقاق؛ الهرطقة.

معرِّف الوثيقة الرقمي:

10.21608/kan.2024.371198

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

الربيع عولـمي. "حركة الدوارين (الريفيين الأوراسيين) في نوميديا أو محاولة ثورة اجتماعية في شمال إفريقيا (٣٢٠م – ٤١١م)".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الخامس والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٤. ص ٣٣ – ٤٧.

Corresponding author: rabieoulmi@gmail.com
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورِيةُ كَان التَّارِيخِية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

إن تاريخ بلاد المغرب ضارب في الأزمنة، متغلغل في أعماق التاريخ، خط على تراب هذه الأرض بعرق سكانها ودمائهم، ومن جهودهم وتضحياتهم. فقد كان هذا الميراث الحضاري الذي وسم الأرض وأهلها بالميزات الكريمة، وبالخاصيات التي عرفت لها على مر السنين. ولو ساغ لأحد أن يلخص كنه هذا التاريخ في كلمة مختصرة ودالة لقال: إنه الانكباب على العمل في الأرض، والوقوف في وجه الأجنبي الدخيل على امتداد زمني يفوق الثلاثين قرنًا.

فقد أثارت علاقة الدوناتية بحركة الدوّارين جدلاً واسعًا بين المؤرخين والباحثين، وقد انطلق معظمهم من كتاب "أوبطا الميلي"(٣٢٠-٣٨٥م أو ٣٩٢م) الثالث (الفصل الرابع) الذي يعد أقدم إشارة صريحة وأول من ذكر مصطلح "الدوّارين" في أواخر سنة ٣٦٦م أو أوائل سنة ٣٦٧م حينما رد على رسالة الهجاء التي حررها "بارمنيانوس" (Parmenianus) أسقف قرطاجة الدوناتي. إضافة الى رسائل القديس "أوغسطين" إلى الأساقفة الدوناتيين، حيث نجده يخاطب الأسقف الدوناتي "بتيليانوس" (Petilianus) في حوالي سنة ٤٠٠م.

من هذا المنطلق نتناول في هذا البحث ثورة الدوّارين "الريفيين الأوراسيين" [١] بنوميديا قبل سنة ٣٤٧م، أي قبل قدوم المبعوثين الإمبراطوريين "بولوس" (Paulus) و"مكاريوس" (Macarius) اللذان أرسلهما الإمبراطور "قسطانتيوس" (Constantius) لإحصاء الفقراء وتوزيع المساعدات بهدف تحقيق الوحدة الدينية في الكنيسة الإفريقية. ونعالج أحداث بغاي التي وقعت سنة ٣٤٧م، والتي تعتبر نقطة تحول حاسمة في العلاقات بين حركة الدوّارين والدوناتيين، ونحاول أن نبرز طبيعة هذه العلاقة قبل سنة ٣٤٧م وبعدها. إلا أنه يصعب على الباحث تحديد بداية ثورة الدوّارين "الريفيين الأوراسيين" بنوميديا بشكل دقيق لكن يبدو -حسب "أوغسطين"-أن نشاط حركة الدوّارين وأعمالها التي وصفها بـ "الإجرامية" بدأت مع ظهور الانشقاق الدوناتي في بداية القرن الرابع الميلادي. ومن أبرز الدراسات الحديثة التي اهتمت بتاريخ الدوّارين، تلك المحاولات التي قام به الباحثان الفرنسيان "سرج لانسال"[٢] (Serge Lancel) و(Odette Vannier) "أوديت فانيي".[٣]

أولاً: ظهور حركة الدوّارين

يبدو أن حركة الدوّارين كانت موجودة منذ سنة ٣٤٠م على الأقل. والأرجح أنها بدأت قبل ذلك بمدة، لأن تدخل جنود "طورينوس" Taurinus ضد الدوّارين جاء بعد عجز الأساقفة الدوناتيين عن "إرجاعهم إلى الصواب في إطار الكنيسة". ونستنتج من هذا أن الحركة استفحل أمرها، خاصة وأنها بلغت درجة لا يستهان بها من حيث التنظيم والمبادئ وطريقة العمل، [٤] حسب ما أورده جون بول بريصون.

يتعذر على الباحث تحديد تاريخ ظهور حركة الدوّارين بدقة. لكن وانطلاقًا من المصادر المتوفرة، فإن الدوّارين ظهروا قبل حادثة "محلة أكطافا" سنة ٣٤٠م، والأرجح أن حركة الدوّارين بسماتها التاريخية تكون قد ظهرت بعد سنة ٣٢٠م، لأن ذكرهم لم يرد في محضر "زينوفيلوس" (Zenophilus) والي نوميديا. ومن جهة أخرى فإن وجودهم كان شيئًا واقعًا حوالي سنة ٣٤٠م. لذا فإن ظهور الحركة كان في الفترة ما بين عامي ٣٢٠م و٣٤٠م. [٥] نستنتج مما سبق – وحسب المصادر التي توفرت لدينا-أن حركة الدوّارين قد ظهرت بهذه التسمية وبملامحها وسماتها التاريخية التي عرفت بها خلال القرن الرابع وبداية القرن الخامس الميلاديين، قبل سنة ٣٤٠م وبعد سنة ٣٢٠م على وجه الترجيح.

يعتبر نص "أوبطا الميلي"[٦] والذي ورد في الفصل الرابع من الكتاب الثالث أقدم إشارة صريحة إلى الدوّارين والمصدر الوحيد الذي تطرق إليهم بشيء من التفصيل في فترة ما قبل سنة ٣٤٧م.[٧] يمكن أن نضع حركة الدوّارين تحت المهجر في ضوء النصوص القديمة والأبحاث الحديثة، وأن نتساءل: من هم "الدوّارون" أو "الثوار الريفيون"؟ هل هم مجرد عصابات متمردة هائمة تحوم حول أهراء الحبوب وتمارس عمليات النهب والسلب، كما حاول المجادلون الكاثوليك أن يصفوهم؟[٨] أم هم جماعات كانت تتنقل عبر الأرياف النوميدية

والموريطانية بحثًا عن قوتها؟ أم جماعات من قطاع الطرق تزرع الذعر في نفوس الآمنين، وتتشكل من المتشردين والصعاليك يتنقلون بين مدن نوميديا؟[٩] هل هم ثوار قاوموا النظام الروماني؟ أو مجموعة من المصارعين (Agonisticii) الذين أطلقوا هذه التسمية على أنفسهم والتي تدل على قوتهم الجسدية وفعاليتهم في مواجهة أعدائهم؟ [١٠] أم هم جنود المسيح (Milites Christi) كما سماهم الدوناتيون [١١] وقد سموا قادتهم (Duces Sanctorum) بالزعماء القديسين؟[١٢] واتخذت هذه التسميات التي أطلقت على الدوّارين طابعًا دينيًا محضًا.

ثانيًا: ماهية الدوّارين في المصادر الكاثوليكية والدراسات الحديثة

تباينت آراء الباحثين حول ماهية الدوّارين والتسميات المختلفة التي عرفوا بها في المصادر الكاثوليكية وفي الدراسات الحديثة، سنحاول من خلال هذه المقاربة استجلاء أسباب إطلاقها ومدلولاتها.

٢/١-مفهوم "الدوّارين" لغة واصطلاحًا

(٢/١) ١-مفهوم "الدوّارين" لغة:

أطلقت عدة تسميات على الدوّارين، وأمام تعددها كان على الباحث استجلاءها والبحث عن أسباب إطلاقها ومدلولاتها. ويبدو أن معظم الباحثين قد اختلفت آراؤهم وتباينت حول تسمية الدوّارين، لذلك لا زالت الحركة تشكل لغزا ومحل تساؤلات عديدة. تعترض الباحث صعوبات جمة في تحديد معنى كلمة "الدوّارين" (كيركوم كليونس) (Circumcelliones) غير أن الصعوبة لا تكمن في الاشتقاق اللغوي، فالمصطلح اللاتيني يتركب من جزأين:"Circum" و "cella".[١٣] فالجزء الأول: كيركوم "Circum" يعني "حول"، أما الجزء الثاني: كيلا "cella" فمعناه إما "هري" وجمعها "أهراء" كيلاس (cellas) أو "مخزن المؤن" (من خمور أو زيوت أو حبوب).[١٤] وهذا التعريف اللغوي هو الذي ظل متداولاً حتى الآن في المعاجم والقواميس اللاتينية.

(٢/١) ٢-مفهوم "الدوّارين" اصطلاحًا

جاءت في المصادر الكاثوليكية تعاريف عدة للدوارين، فقد ذكرهم القديس "أوغسطين" بقوله: «كانوا يسمون بالدوّارين لدورانهم حول الأهراء».[١٥] أو أنهم: «أولئك الذين يحومون حول (Cellas rusticanas) الأهراء الريفية بحثًا عن القوت، ومن ثم جاءت تسميتهم بالدوّارين....».[١٦] يتضح مما سبق أن القديس "أوغسطين" اكتفى في تعريفه بالإشارة إلى الاشتقاق اللغوي، وترك بذلك الباب مفتوحًا لعدة تساؤلات وتأويلات. ويعرف معظم المؤرخين المحدثين[١٧] "الدوّارين" اصطلاحا بأنهم: أولئك الذين يدورون ويحومون حول الأهراء.

غير أنه برز في مطلع الخمسينيات تفسيرين جديدين لمعنى"cella". فقد افترض الإنجليزي "فراند" (Frend) أن كلمة "كيلاس روستيكاناس" (cellas rusticanas) التي وردت في نص "أوغسطين" لا تعني "الأهراء الريفية" وإنما معناها "أضرحة الشهداء الريفية" التي كانت متناثرة في الأرياف النوميدية والموريطانية. ذلك أن الدوّارين كانوا يشكلون فرقة من الدوناتيين يرتادون تلك "الأضرحة الريفية" للتبرك برفات الشهداء من جهة، والبحث عن قوتهم فيها من جهة ثانية.[١٨] إذ أن هذه الأضرحة كانت تتوفر في الغالب على مخازن للمؤن ومستودعات غذائية[١٩] كشف علم الآثار عن بقاياها.[٢٠] أما التفسير الثاني فقد افترضه الباحث الايطالي "كالدرون" (Calderone) سنة ١٩٦٧م، واعتبر أن الدوّارين كانوا نوعا من النساك أو الرهبان الذين يتجولون بين الأديرة، ومن هذا المنطلق فإن المقصود بـ: "cella" هو "بيت الراهب".[٢١]

يتضح من خلال المدلولات الاسمية السابقة التي أطلقت على الدوّارين وصفين مختلفين: المدلول الأول الذي درج أصحاب الجدل الكاثوليك على إطلاقه بهدف تشويه هذه الحركة ووصفها بأنها غير أخلاقية تمارس السلب والنهب وتسعى إلى ترويع الناس. وفي نفس الوقت نلمس إقرارًا ضمنيًا من طرف هؤلاء المجادلين بقوة الحركة وانتشارها من خلال الاعتراف بوجود الدوّارين في كل مكان وكل مدينة من المدن النوميدية والموريطانية.

٢/٢-الدوّارون في المصادر الكاثوليكية

اختلفت آراء الباحثين حول تسمية الدوّارين، ويرجع هذا الاختلاف ربما إلى تباين الآراء حول نشاطات

الدوّارين، وحول طبيعة حركتهم. وتجدر الإشارة هنا أن مختلف هذه الآراء ترتكز أساسًا على نصوص الكتاب الكاثوليك المعاصرين للدوارين أو اللاحقين الذين نقلوا عنهم، وبشكل خاص على كتابات القديسين "أوبطا الميلي" و"أوغسطين" ضد الدوناتية. نستشف من هذه المصادر الكاثوليكية بعض التسميات التي عرف بها الدوّارون مثل "المصارعون" (Agonisticii) و"جنود المسيح" (Milites Christi)، و"الزعماء القدسيين" (Duces Sanctorum) أو "الطوافون حول أضرحة الشهداء"، فهذه التسميات إما أن الثوار الريفيين أطلقوها على أنفسهم، أو أطلقت عليهم من قبل الدوناتيين.[٢٢] يبدو أن هذه النعوت لها مدلول إغرائي هدفه إعطاء بعد روحي لحركة الدوّارين لاستمالة الأهالي وكسب تعاطفهم.

والحقيقة أن الكتاب الكاثوليك كانوا يعتبرون حركة الدوّارين جزء لا يتجزأ من الانشقاق الدوناتي، وأن الدوّارين كانوا يمثلون الجناح العسكري للدوناتية ورؤوس رماحها ضد الكنيسة الكاثوليكية. وهكذا فإنهم لم يتحدثوا عن الدوّارين إلا في إطار جدلهم الكلامي مع خصومهم الدوناتيين.[٢٣] ومن ثم فإن اللهجة التي استعملوها للحديث عن الدوّارين كانت تحمل الكثير من الازدراء والتحقير، واعتبروهم مجموعات من قطاع الطرق والصعاليك واللصوص وهي شتيمة رومانية – دون شك–غذتها الدعاية الكاثوليكية، وقد تصل هذه اللهجة في بعض الأحيان إلى القذف والسب اللاذعين.[٢٤]

والحق أن كتابات "أوغسطين" لا تشفي الغليل فيما يساعد على تحديد مدلول الدوّارين، وهو الذي عاش جزءا مهما من تاريخ الحركة وخصص فقرات للتنديد بالدوّارين، فأثارت كتاباته العديد من التساؤلات. لذلك كان من الضروري الرجوع إلى النصوص الكاثوليكية–وكتابات "أوغسطين" على الخصوص–وبعيدا عن جو الجدل الكلامي وعبارات القدح والقذف والتجريح. يبدو أنه من الأفضل الانطلاق من وثيقة رسمية صدرت عن السلطة الإمبراطورية آنذاك، ويتعلق الأمر بقانون "هونوريوس" (Honorius) الذي صدر في ٣٠ جانفي سنة ٤١٢م، بعد تحريم الدوناتية إثر مناظرة قرطاجة سنة ٤١١م. ويحدد هذا القانون قيمة الغرامات المالية والعقوبات المزمع تطبيقها على الدوناتيين الذين لم يلتحقوا بـ "الوحدة الكاثوليكية".

وينص القانون على ما يأتي: «اعتبارًا من تاريخ صدور هذا القانون، إذا لم يلتحق كل الدوناتيين – سواء منهم الأساقفة أو القساوسة أو العامة– بالكنيسة الكاثوليكية التي انشقوا عنها، فليرغموا على أداء غرامة فردية إلى خزينتنا وذلك حسب ما يأتي: "المشاهير" Inllustres: ٥٠ رطلاً من الذهب، "الأشراف" Spectabiles: ٤٠ رطلاً من الذهب، "السيناتوريون" Senatores: ٣٠ رطلا من الذهب، "اللامعون" Clarissimi: ٢٠ رطلا من الذهب، "أعيان الإقليم" Sacerdotales: ٣٠ رطلا من الذهب، "أعيان المدن"Principales: ٢٠ رطلا من الذهب، "أعيان المجالس البلدية" Decuriones: ٥ أرطال من الذهب، "التجار" Negotiatores" : ٥ أرطال من الذهب، "عامة المدن" plebei: ٥ أرطال من الذهب، "الدوّارون " Circumcelliones: ١٠ أرطال[٢٥] من الفضة.»[٢٦]

وفي حالة ما إذا لم يقدم "الأكارون"[٢٧] Conductores الدوّارين الموجودين تحت مسؤوليتهم، أو لم يقدمهم "وكلاء الإمبراطور" Procuratores إلى "المكلف بتنفيذ القانون" (Executor) كي يؤدوا الغرامة، فإنهم مطالبون شخصيا بأدائها، بحيث لا يعفى منها حتى أهل البيت ولتخضع النساء للغرامة الزوجية على انفراد. وهكذا سوف يتعرض كل من أصر على البقاء في الدوناتية – رغم الأحكام الصادرة عليه–إلى مصادرة ممتلكاته، أما العبيد (Serve) الرافضون لتنفيذ هذا القانون فيودعون السجن، وأما المزارعون (Coloni) فيتعرضون للجلد، ويمكن لأسيادهم أن يقوموا بتسديد الغرامات المفروضة عليهم.[٢٨]

تكتسي الإشارة إلى الدوّارين (Circoncellions) في نص قانوني رسمي مثل قانون "هونوريوس" في حد ذاته أهمية بالغة، إذا ما استثنينا إشارة أخرى في قانون الملك الوندالي "هونوريك" (Huneric) ضد الكاثوليك في سنة ٤٨٤م، والذي هو نسخة منقولة نقلا شبه حرفي عن "قانون هونوريوس".[٢٩]

ويرجع الفضل إلى الباحث الفرنسي "شارل صوماني" في لفت نظر الباحثين إلى هذا القانون حيث لا يعيرونه اهتمامًا دون تحليله واستنتاج ما يمكن استنتاجه من النص. تتجلى أهمية النص في أنه يحدد قيمة الغرامات المالية حسب مختلف الفئات الاجتماعية (ordines)، وبما أن الجنحة هي اعتناق الدوناتية، فإن تفاوت قيمة الغرامة المالية إنما يعود إلى تفاوت الإمكانات المالية لكل فئة من هذه الفئات وحسب المكانة الاقتصادية والاجتماعية لمختلف هذه الفئات المذكورة في القانون.[٣٠]

وتتدرج هذه العقوبات من أعلى الفئات مثل: المشاهير واللامعون والسيناتوريون، إلى الطبقة البورجوازية الحضرية مثل: أعيان الإقليم، وأعيان المدن وأعيان المجالس البلدية، وتجار وعوام المدن مثل: التجار وعامة المدن، إلى الفئات الدنيا مثل: العبيد والمزارعون. أما فئة الدوّارين التي نحن بصدد دراستها فقد صنفت في أدنى مرتبة من الفئات التي تمثل الرجال الأحرار، ومباشرة بعد عامة المدن، لكنها ذكرت قبل فئة العبيد والمزارعين.

وقد اهتم باحثان[٣١] بدراسة هذا النص فأدخلا بعض التعديلات على قراءة صوماني:

الأول، يرى "ج. ب. بريصون" (J.P.Brisson) أن الفقرة الآتية التي وردت في قانون "هونوريوس": «وهكذا سوف يتعرض كل من أصر على البقاء في الدوناتية – رغم الأحكام الصادرة عليه- إلى مصادرة ممتلكاته » ، فمصادرة الممتلكات لا تعني الدوّارين وحدهم كما كان يعتقد "صوماني".[٣٢] لكن الفقرة تهم كل الفئات التي ذكرت قبل الدوّارين، كما تهم الدوّارين أيضًا.[٣٣] المهم في ذلك أن الدوّارين كانوا معرضين لمصادرة ممتلكاتهم كبقية الفئات، مما يعطي الدليل على أن القانون اعترف لهم ضمنيا بامتلاكها. الثاني، ينما اقترح "تنغستروم" (E. Tengström) قراءة أخرى للفقرة الآتية: «وإذا لم يقدم "الأكارون" الدوّارين الموجودين تحت مسؤوليتهم، أو لم يقدمهم "الوكلاء" إلى المكلف بتنفيذ القانون كي يؤدوا الغرامة، فإنهم مطالبون شخصيا بأدائها ...».[٣٤]

يرى "تنغستروم" أن الضمير (ipsi) في الجزء الأخير من الفقرة، لا يعود على الدوّارين كما قرأه "صوماني"[٣٥] و"بريصون"[٣٦]، ولكن يعود على الأكارين والوكلاء.

وقد نالت هذه القراءة رضا بعض الباحثين[٣٧]، فبالرغم من أنها تبدو أكثر تلاؤما مع سياق النص إلا أنها لا تدخل تغييرا ملحوظا عليه، إلا من حيث مسؤولية الوكلاء ومسيرو الأعمال في الضغط على الدوّارين كي يتخلوا عن الدوناتية، فهم المكلفون بتسليم الدوّارين إلى منفذ القانون (Executor).

لقد كان الدوّارون يشكلون فئة من الرجال الأحرار، المعرضين لأداء غرامة مالية ومصادرة ممتلكاتهم، إذا لم يذعنوا لمقتضيات قانون "هونوريوس". لذلك نرى أن وضعيتهم كانت تختلف عن وضعية العبيد والمزارعين الذين كانوا معرضين للعقوبات الجسدية (السجن والجلد).

ويبدو أن مسيرو الأعمال لم يكونوا متحمسين للمهمة التي أوكلت لهم حسب قانون "هونوريوس"، لذلك صدر بعد ذلك بسنتين قانون في سنة ٤١٤م.[٣٨] وكان أقسى عليهم من قانون سنة ٤١٢م الذي نص على: « أما مستأجري ضيعاتنا، إذا هم سمحوا بممارسة الهرطقة (الدوناتية) فوق أراضينا، فليعاقبوا بأداء قدر من المال يساوي القدر الذي يسددونه عادة ككراء عن الضيعات. وأما المستأجرون الخواص، فإذا سمحوا بانعقاد تجمعات "دوناتية" في الملكيات أو أدى تساهلهم إلى تدنيس الأسرار المقدسة (Sacrum Mysterium)، فليخبر القضاة بذلك الملاك المعنيين. وعلى هؤلاء إما أن يصلحوا اعوجاج المستأجرين، وإما أن يعوضوا من تمادى منهم في غيهم بمديرين متشبعين بالمبادئ الإلهية. وأما الملاك الذين تهاونوا في إخبار السلطة، فليعاقبوا بغرامة مالية قدرها الربع الذي اعتادوا كسبه (من أراضيهم) ».[٣٩]

يبدو أن السلطة الرومانية كانت تعتبر الملاك نوعا من الوسطاء بينها وبين المستأجرين. كما كانت تعتبر هؤلاء الأخيرين وسطاء بينها وبين الدوّارين. ومع أن قانون سنة ٤١٤م لم يذكر الدوّارين صراحة، إلا أنه كان يقصدهم عبر تحميل المستأجرين مسؤولية تجمعات الدوّارين وتدنيسهم للأسرار القدسية في الأراضي

الإمبراطورية أو أراضي الخواص. ومما تجدر الإشارة إليه أن القانون لم يحدد أي عقوبة بخصوص الدوّارين، في حين نص على عقوبات خاصة بالعبيد والمزارعين: كالسجن والجلد فضلاً عن انتزاع ثلث ($\frac{1}{3}$) المكسب بالنسبة للمزارعين.[٤٠] كما أن غياب الدوّارين في قانون سنة ٤١٤م لا يدل على اختفائهم "كأوردو – Ordo" (فئة اجتماعية) لسبب أو لآخر، إذ أن القانون لم يذكر أيضًا فئات أخرى مثل: اللامعون (Clarissimi) والتجار(Negotiatores) وعوام المدن (Plebei).[٤١]

مما يلاحظ على قانون سنة ٤١٤م أنه كان أقل صرامة من قانون سنة ٤١٢م من حيث قيمة الغرامات المالية المفروضة على الفئات الاجتماعية العليا (المشاهير، الأشراف، اللامعون، السيناتوريون...) في حين كان أكثر تشددا مع الفئات الريفية (مزارعون، عبيد).

وأعتقد أن هذا التفاوت في معاملة القانون للفئتين يعود أساسًا إلى: أن الفئات الريفية كانت أكثر تأثرًا بالدوناتية من غيرها، وأكثر مقاومة لقانون "هونوريوس" سنة ٤١٢م، ومن ثم جاء التشدد من طرف المشرع تجاه هذه الفئات. وأن الضغط أصبح مركزًا على المستأجرين، إذ أنهم أصبحوا مهددين بفسخ عقودهم مع ملاك الأراضي، مما يدل على أن الدولة لاحظت من تجربة سنتين (٤١٢-٤١٤م) مدى تهاونهم في تطبيق قانون "هونوريوس" سنة ٤١٢م.

ويمكننا أن نتساءل عن مدى تطابق معطيات هذا النص القانوني مع المعلومات التي يمكن استخلاصها من النصوص والمصادر الأدبية عن الدوّارين؟

تشير تلك النصوص إلى أن الدوّارين كانوا يضمون في صفوفهم عددا كثيرًا من السكان الأصليين الذين رفضوا سياسة الرومنة. إذ يذكر "أوبطاتوس الميلي" أنه في حوالي سنة ٣٤٠م كانت جماعات من الدوّارين في نوميديا يترأسها زعيمان يحملان اسمي"أكسيدو" (Axido) و"فازير" (Fasir) في سياق حديثه عن المعركة التي دارت بينهم وبين فرق الكونت "طورينوس" (Taurinus).[٤٢] في حين يحدثنا "أوغسطين" عن بداية ظهور جماعات الدوّارين التي تعود إلى سنة ٣١٧م عشية الإعلان عن مرسوم "قسطنطين" الذي ينص على نزع الكنائس من المنشقين الدوناتيين.[٤٣] ونلاحظ أن اسمي "أكسيدو" و"فازير" لا ينمان عن ترومن عميق.[٤٤] كما يشير "أوغسطين" إلى أن الدوّارين في ضواحي مدينة "هيبو ريجيوس" (Hippo-Regius) "عنابة حاليًا" كانوا لا يفقهون اللغة اللاتينية.[٤٥] لذلك كانت اللغة البونية (الليبية؟) ضرورية للتفاهم معهم.[٤٦]

وتذكر نصوص كاثوليكية أخرى الدوّارين بلهجة تحمل الكثير من الاستغراب والاستهجان، حيث يتحدث عنهم "أوغسطين" قائلا: « ... تلك المخلوقات الفظة والمخبولة التي لا تفهم ولا تحتمل ما ننصحها به في سبيل خلاصها، والتي تمارس ضدنا أعمال عنف مسعور لا تكفي كلماتي لتعدادها والتذكير بها وعرضها عرضًا مناسبًا».[٤٧] يبدو من النص أن "أوغسطين" يتحامل – كعادته –على الدوناتيين ويصفهم بالمخلوقات، وهو بذلك ينزع عنهم صفة الآدمية، وأنهم جماعات تمارس العنف ضد الكاثوليك. ويشير في فقرة أخرى إلى ذلك التعاون بين الدوّارين والكهنة (Clerici) الدوناتيين لاقتراف الجرائم في حق الكنيسة الكاثوليكية.[٤٨]

ومهما يكن من أمر، فإن معظم الدوّارين كانوا ينتمون إلى أصول إفريقية، مع عدم تأثرهم بقيم سياسة الرومنة وباللغة اللاتينية، وهذا ما يتلاءم مع المستوى الاقتصادي والاجتماعي الذي ذكرهم به قانون سنة ٤١٢م. ولما كان الدوّارون يتنقلون من مكان لآخر، فإن عدم استقرارهم ساعدهم على عدم التأثر بسياسة الرومنة. وفعلا فقد كان تنقلهم وعدم ثباتهم في مكان معين من أبرز السمات التي اتصفوا بها، والتي أثارت انتباه بعض الكتاب الكاثوليك المعاصرين لهم، ومنهم من وصفهم بـ "Circuitores"[٤٩] والتي لا تفيد أكثر من معنى "دوارين" أي الذين يحومون حول الأهراء أو أضرحة الشهداء.

وتحدث عنهم "أوغسطين" في حوالي سنة ٤٢٠م إذ قدمهم على الشكل الآتي:« إنني أتحدث عن وقائع يعرفها المعاصرون حق المعرفة. فمن منا لا يعرف ذلك النوع من الناس الذين لا يكفون عن اقتراف الجرائم الشنيعة، ويستكفون عن الأعمال النافعة، شديدي القسوة في قتل الآخرين، وبالغي الدناءة في قتل

أنفسهم، يرهبون البوادي خاصةً، لكن لا يشاركون في الأعمال الفلاحية، يحومون حول الأهراء الريفية (Cellas rusticanas) بحثًا عن القوت–ومن ثم جاءت تسميتهم بالدوّارين–ومَنْ منا لا يعرف أنهم يمثلون في العالم أجمعه أشهر وصمة عار في جبين الانشقاق الإفريقي» [٥٠] يلخص هذا النص نظرة الكاثوليك إلى الدوّارين، مشيرًا إلى أهم السمات التي اتصفوا بها – في رأيهم، ومنها أن الدوّارين كانوا يقترفون جرائم شنيعة باغتيال الكاثوليك. وأنهم لا يتوانون في قتل أنفسهم إراديًا (الانتحار الإرادي رغبة في الاستشهاد). وأنهم جنود الدوناتية ورؤوس رماحها، وبذلك فهم يمثلون – حسب "أوغسطين"–أشهر وصمة عار في جبين الدوناتية.

يبدو –حسب شهادة "أوغسطين"–أن الدوّارين كانوا يعيشون في الأرياف، برغم لهجة التحقير والازدراء التي وصفها بهم " "ذلك النوع من الناس". ونستنتج من ذلك أن الدوّارين كانوا –على الأقل في البداية–شبه منحصرين في البادية وإن كانوا لا يشاركون في الأعمال الفلاحية. ويؤكد ذلك أقدم نص يتحدث عن الدوّارين – وهو الفصل الرابع من الكتاب الثالث لـ"أوبطا الميلي"– حيث ذكر أن الأسقف الدوناتي بمدينة بغاي (Bagai) "شمال الأوراس" أرسل المنادين إلى كل ضواحي المدينة وإلى الأسواق ليستنفر الدوّارين ويحثهم على مهاجمة البعثة الإمبراطورية سنة ٣٤٧م. وهكذا يستعمل الكاثوليك نوعا من التهديد للضغط على الدوناتيين كي يوقفوا أعمال عنف الدوّارين الموجهة ضد الأساقفة والكنائس الكاثوليكية. [٥١]

وفي هذا السياق يشير "أوغسطين" في أحد النصوص: «كانت الغارات العنيفة التي يقوم بها دواروكم الذين يهجمون علينا على شكل عصابات مجنونة تحت سلطتكم وأوامركم، تؤدي بنا إلى الطرد من كل مكان في البادية، لو لم نحتجزكم كرهائن في المدن؟...» [٥٢] يتضح من النص أن مجال عمليات الدوّارين كان مركزا في الأرياف، حيث كانت جماعاتهم تغير على الكنائس والأساقفة وتمثل أكبر خطر على الوجود الكاثوليكي بها. وحسب "أوغسطين" فإن الدوّارين كانوا يتحكمون أيضًا في المدن وفي المناطق الريفية التابعة للضيعات (Fundi). ولما كان الدوّارون يقومون بعمليات في الأرياف فإنهم كانوا يتقدمون أحيانا في غاراتهم على بعض المدن، كما وقع حوالي سنة ٤٠٩م، حينما قادهم الأسقف الدوناتي "ماكروبيوس" (Macrobius) إلى دخول "هيبو–ريجيوس" (عنابة). [٥٣]

ويمكن أن نخلص إلى أن المصادر الكاثوليكية كانت تصف الدوّارين" بالريفيين" (Agresti). [٥٤] ويتفق ذلك مع ما ورد من نعوت في قانون "هونوريوس" سنة ٤١٢م من كون الدوّارين كانوا يعيشون في الضيعات الإمبراطورية وفي أراضي الخواص تحت إمرة المستأجرين، ولذلك نرى أن هناك تطابقا بين معطيات ذلك القانون والمعطيات التي استقيناها من النصوص والمصادر الأدبية الكاثوليكية.

إذن، نحن أمام رجال أحرار يؤلفون فئة اجتماعية محددة حسب قانون ٤١٢م، يعيشون في البوادي، ويتنقلون من مكان إلى آخر، لكنهم يستنكفون عن العمل الفلاحي ويرهبون البوادي خاصة حسب قول "أوغسطين". [٥٥]

ويتحدث بعض الكتاب الكاثوليك في مقام آخر عن "جرائم شنيعة" اقترفها الدوّارون، من هؤلاء نجد "أوغسطين" الذي يعدد بعض تلك الجرائم في حوالي ٤٠٥– 406م قائلاً: « ...تلك القسوة التي تخترع ضدنا ألوانا من الاغتيال والنهب، والحريق وإلهاب العيون وغيرها...» [٥٦] ويذكر في نص آخر جرائم أخرى كان الدوناتيون والدوّارون يقترفونها: « ... في كل يوم نعاني من الأضرار المذهلة التي يقترفها قساوستكم ودواروكم، وهي أضرار أشر من أفعال كل اللصوص وكل النهابين مجتمعين... » [٥٧]

توحي النصوص السابقة أن النهب والحريق والتلصص كانت من بين الجرائم التي ذكرها "أوغسطين". لكن الحقيقة أن كل ما تشير إليه النصوص إنما يدخل في إطار المساجلة الكلامية مع الدوناتيين ولا تعطي أي إشارة إلى أعمال قام بها الدوّارون. وإذا كان أوغسطين قد تحدث عن مهاجمة الدوّارين للكنائس والممتلكات الكاثوليكية، فإن الهدف من ذلك – حسب النصوص نفسها – لم يكن بغرض النهب والسلب، وإنما يندرج ضمن إطار الصراع المذهبي بين الدوناتيين

والكاثوليك، وحماية الفقراء والمستضعفين من استغلال وبطش الأغنياء.

٢/٣-الدوّارون في الدراسات الحديثة

تعددت آراء الباحثين المحدثين وكتاباتهم حول الدوّارين، ويعود هذا التباين في الآراء الى طبيعة نشاطات حركة الدوّارين وتنوع أساليبها. وترتكز هذه الآراء أساسا على نصوص الكتاب المعاصرين الذين نقلوا عن المصادر الكاثوليكية، وقدموا عدة أطروحات وفرضيات مثل: والباحث الفرنسي "بول مونصو" (P. Monceaux)[٥٨] والباحثة الفرنسية "أوديت فانيي" (O. Vannier)[٥٩] والباحث الفرنسي "ج. ب. بريصون" (J.P.Brisson)[٦٠] الفرنسي "شارل صوماني" (Ch.Saumagne)[٦١] والباحث السويدي "تنغستروم" (E.Tengström)(1913–1996)[٦٢][٦٣] والباحث الايطالي "كالدرون" (S. Calderone) (1876–1929).[٦٤]

يعتبر "مونصو" أن الدوّارين: « كانوا مغامرين رُحّل لا بيت لهم ولا مقرّ، يعيشون من التلصذُص، ويحبون الطواف حول الضيعات (Circumcellas) ومخازن الحبوب والمؤن، وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم "المصارعين" (Agonisticii) أو جنود المسيح (Milites Christi).[٦٥] ويدعون أنهم يدافعون عن الكنيسة الحقة، كنيسة دوناتوس والمسيح، ضد الشيطان أي ضد الكاثوليك. وكانت عصاباتهم تتشكل من رعاع الشعب وأوباشه، ومن المستاءين من مختلف الأجناس والجهات، فكان من بينهم الأهالي الذين لا يتكلمون سوى اللغة البونية، والعبيد الآبقون، والمزارعون Coloni المفلسون، والكاثوليك المفصولون عن المجتمع، والمفلسون، والمجرمون ذوي السوابق، فضلاً عن السذج المتعصبين. وكان زعماؤهم إما من الأهالي، أو من الكهنة الدوناتيين» [٦٦] يوحي النص أن "مونصو" حذا حذو مصادره الكاثوليكية، وتبنى وجهة نظر خصوم الدوناتيين والدوّارين، بحكم احتكاكه المباشر والطويل بعمله الموسوعي "التاريخ الأدبي لإفريقيا المسيحية."

ويمكننا أن نتساءل عن السبب الذي دفع بـ "مغامرين" و"لصوص" يعيشون من النهب والسلب إلى اتخاذ موقف من الصراع المذهبي بين الكاثوليك والدوناتيين، واختيار الاستشهاد الإرادي ولو عن طريق الانتحار، وحمل ألقاب دينية كالمصارعين وجنود المسيح والقديسين. هذا فضلا عن أن أهدافهم كانت ترتقي إلى الذود عن الضعفاء والفقراء ضد تعسف وظلم الأغنياء. والحقيقة أنه لو كان الدوّارون مجرد عصابات من المغامرين واللصوص، وخليطا –حسب مونصو–من العبيد الآبقين والمزارعين المفلسين والمجرمين، لما نظر إليهم قانون "هونوريوس" سنة ٤١٢م على أنهم فئة اجتماعية متجانسة نوعا ما. إذ لا يعقل –كما ذكر "صوماني" Saumagne–[٦٧] ، أن يعترف المشرع بالوجود الشرعي لعصابات من قطاع الطرق والخارجين عن القانون. ولو كان ذلك صحيحًا لكان من السهل على ذلك المشرع أن يأمر بسجنهم وأن يخضعوا للعقوبات المنصوص عليها في قانون ٤١٢م.

وترى "أوديت فانيي" (O. Vannier)[٦٨] أن الدوّارين في بغاي كانوا يشبهون جماعات من المتسولين والمساكين (Meskines) التي شوهدت قبل سنوات (من سنة ١٩٢٦م) وهي تجوب مناطق مختلفة من الجزائر، نتيجة الصعوبات الاقتصادية التي انجرت عن حالة البلاد آنذاك.[٦٩] يبدو أنه من غير المنطقي تأييد وقبول هذا الرأي، لأن قانون ٤١٢م لم يكن ليرفع جماعات من المتسولين إلى مرتبة "أوردو" (Ordo)، أي فئة اجتماعية لها عضويتها في المجتمع الإفريقي آنذاك، وأن يفرض عليها دفع غرامة مالية قدرها عشرة أرطال من الفضة!

وإذا كان "صوماني" قد اعتبر الدوّارين مجرد رحل لا يملكون الأراضي و"عمال فلاحيين"، [٧٠] يتنقلون من ضيعة لأخرى بحثا عن العمل وعن القوت في الضيعات أثناء مواسم جني الزيتون وقطف العنب والحصاد. فإن "فراند" (Frend) حاول تحديد نوع الأشغال الفلاحية التي كانوا يمارسونها، ورأى أنهم كانوا يشتغلون في الزياتين المنتشرة في نوميديا الجنوبية شمال الأوراس، [٧١] أي في المنطقة التي تحدثت المصادر عن تركز عمليات الدوّارين فيها. بينما يرى "مونصو"[٧٢] (Monceaux) أن الهراوات (Fustes) التي كانوا يستعملونها كسلاح في هجماتهم –حسبما جاء في

نصوص أوغسطين- [٧٣] كانت عبارة عن مخابط كانوا يستخدمونها في قطف الزيتون (Perticae). [٧٤] وعلى هذا الأساس فإن "الأهراء الريفية" (Cellas rusticanas) التي كانوا "يحومون" حولها حسب تعريف "أوغسطين"، [٧٥] كانت بالأحرى "مخازن للزيت" (Cellae olеariae). [٧٦]

يبدو من الغريب أن يكون القديس "أوغسطين" قد أهمل الإشارة إلى أن هراوات الدوّارين التي كانوا يعطونها الاسم الديني "إسرائيلات" (Israëls-Israeles) [٧٧] عبارة عن مخابط الزيتون. ذلك أنه كان يهدف من وراء ذلك تدعيم مساجلاته الكلامية مع الدوناتيين، بتضخيم الأسلحة التي كانوا يهاجمون بها الكاثوليك.

ثالثًا: المجال الجغرافي لثورة الدوّارين

يظهر أن مجال عمليات الدوّارين قد توسع مع مرور الزمن حيث شملت عملياتهم معظم مناطق نوميديا في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس للميلاد، ولم تبق مركزة في نوميديا الجنوبية شمالي الأوراس فقط. كما لا يمكن إنكار وجودهم في شمال نوميديا في منطقتي هيبو- ريجيوس (عنابة) وكالاما (قالمة) على وجه الخصوص، كما امتدت شرقًا إلى مدن البروقنصلية مثل موستي وتبورسيكوم بوري (تبرسق) وأسوراس.

وهكذا نرى أن المهتمين بثورة الدوّارين وبالحركة الدوناتية من الكتاب الأفارقة المعاصرين لهم ("أوبطاتوس" و"أوغسطين") ومن الباحثين المحدثين، قد انقسموا إلى تيارين: التيار الأول: يركز على ظروف الدوّارين الاجتماعية ونشاطهم الاقتصادي، مع إمكانية الاختلاف حول ما إذا كانت للحركة أهداف ثورية [٧٨] أم لا؟ [٧٩] والتيار الثاني: يرى أن حركة الدوّارين حركة دينية في الأساس، فهم إما نوع من الرهبان، [٨٠] أو فرق متنقلة بين أضرحة الشهداء المتناثرة في الأرياف الإفريقية. [٨١]

وإذا كان "صوماني" قد دافع عن رأيه – السابق الذكر-باعتبار الدوّارين "عمالا فلاحيين"، فإن الإيطالي "كالدرون" دافع هو الآخر عن أطروحته التي تعتبر الدوّارين "رهبانا"، ويرفض رفضا تاما أن يكون الدوّارون عمالاً فلاحيين.

ويعتمد "كالدرون" في تبرير أطروحته على برهانين أساسيين هما:

البرهان الأول: يذكر "كالدرون" في أحد النصوص يشير فيه إلى: « أن الدوّارين كانوا على صفة الرهبان يتجولون في كل مكان، متنقلين عبر الأقاليم، لم يبعث بهم إلى أي مكان، ولم يستقروا في مكان واحد، بل كانوا دائمي التنقل». [٨٢] البرهان الثاني: ويرى "كالدرون" في مقام آخر أن الأمر يتعلق بتأويل كلمة "Cotopita" [٨٣] التي ورد ذكرها عند "إيزيدور الإشبيلي" وهي مرادفة في المعنى لكلمة Circumcelliones: يطلق على الدوّارين اسم Circumcelliones، فهم "ريفيون" (Agrestes)، ويسمون أيضًا Cotopitas التي هي كلمة إغريقية مرادفة للكلمة اللاتينية Circelliones». [٨٤]

ويعتقد "كالدرون" أن Cotopita كلمة قبطية مكونة من شقين: Ket (من فعل Kôet المرادف للاتيني Circumuire: بمعنى دار حول) وaouvèt بمعنى: "تجمع للنساء" أو "صومعة الرهبان"، والكلمة المركبة Két-aouvèt كانت تنطق Kétaubit وبالتالي أعطت Cotopita باللاتينية. وهكذا أصبحت كلمة Cotopita تعني: " الذي يدور حول بيع الرهبان" وبما أنها مرادفة للكلمة اللاتينية Circumcellio، فإن كلمة Cella ينبغي أن تُفهم بمعنى "بيت الراهب". لذلك وانطلاقًا من هذه المقاربات فإن الدوّارين كانوا رهبانا متنقلين بين "تجمعات الرهبان" في البوادي الإفريقية. [٨٥] يبدو أنّه من غير الممكن الاعتماد على الإشارات التي أوردها "كالدرون" (Calderone) لتدعيم أطروحة الدوّارين الرهبان. إضافة إلى أن الكتاب اللاحقين لأوغسطين وقعوا –دون شك-في خلط بين الرهبان المتنقلين الكاثوليكيين (Moines gyrovagues) وبين الدوّارين. هؤلاء الرهبان الذين انحرفوا عن قواعد الرهبنة بسرعة وبدأوا يغادرون بيعهم للتسكع بين القرى. أما البراهين التي قدمها "كالدورن" فلا تعدو أن تكون مجرد افتراضات.

رابعًا: علاقة الدوّارين بالدوناتيين

وعن علاقة الدوّارين بالدوناتيين يذكر "أوغسطين" أنّ عددا من الأساقفة الدوناتيين تزعّموا بعض عصابات الدوّارين.[٨٦] وربّما كان يقصد "أوبطاتوس الجيلدوني"[٨٧] على وجه الخصوص وأساقفة آخرين « ... كان بودهم أن يفعلوا مثله ولكن الإمكانات أعوزتهم».[٨٨] ونشير هنا أنّ أوغسطين وصف الدوّارين بالعصابات. ومعلوم أنّ الكاثوليك – في إطار الجدل الفقهي-كانوا يردُّون على ادعاءات الدوناتيين بكون كنيستهم كانت "كنيسة القديسين" و"كنيسة الشهداء"، وأن هؤلاء القديسين هم وحدهم يملكون القدرة على التعميد أو إعادته، إذ أن صحّة التعميد مرتبطة بقداسة خادم السر أو المعمد (Minister).[٨٩] فكان ردُّ الكاثوليك أنه إذا كان "أوبطاتوس الجيلدوني" (الشكل ٤) والدوّارون وأمثالهم يملكون قدرة التعميد، فأين "قداستهم" وهم يرتكبون أشنع الجرائم؟[٩٠] لذا كان معظم الأساقفة الدوناتيون يستنكفون عن تصرفات الدوارين، حتى لا يحرجوا في مجادلاتهم الفقهية مع الكاثوليك من جهة، وحفاظا على مصالح الحركة الدوناتية تفاديا لانتقام السلطة الرومانية منهم من جهة ثانية.

أما عن سبب تسمية "أوبطاتوس" بـ"الجيلدوني" (Gildonianus) فقد كان يقدّم الدعم والمساندة للثائر "جيلدون"(Gildon) في ثورته على السلطة الرومانية خلال الفترة (397-٣٩٨م) فكان من أبرز الأساقفة الدوناتيين الذين دعموا هذه الثورة Optatus de Thamugadi أسقف كنيسة "تاموقادي" (تيمقاد حاليا شرق الجزائر) الذي كان مستشارًا له، ولعب دورًا بارزًا في قيادة الرجال وتجنيد فرق من الدوّارين لتدعيم "جيلدون"، Gildonianus). وبعد هزيمة "جيلدون" تم القبض على "أوبطاتوس" وتوفي في السجن سنة ٣٩٨م.[٩١] أما عن طبيعة الدوّارين وحركتهم الثورية، فإننا نتساءل هل شكّل الدوّارون فعلا تلك العصابات المسلّحة؟ التي قال عنها "أوغسطين" أنّها عصابات كانت تعمل تحت قيادة الأسقف "أوبطاتوس الجيلدوني"[٩٢] أسقف تيمقاد الدوناتي-الخارج عن القانون-على حد قول "أوغسطين"؟[٩٣] ولنا في الشواهد الإبيغرافية (الشكلين ١-٢) التي عُثر عليها في كنيسة تيمقاد (الشكل رقم ٣) ما يدلُّ على النشاط الذي قام به "أوبطاتوس الجيلدوني" في مدينة "تاموقادي".[٩٤]

خَاتِمَةٌ

توصلتُ من خلال هذه الدراسة التي بين أيدينا إلى مجموعة من النتائج نوجزها فيما يأتي:

- يتّضح مما سبق عرضه من مختلف الأطروحات التي حاولت تفسير ماهية الدوّارين وطبيعة حركتهم وعلاقتهم بالحركة الدوناتية، أنهم كانوا يشكلون فئة اجتماعية (أوردو- Ordo) تتألف من رجال أحرار يعيشون في الأرياف الإفريقية، وينتمون-في معظمهم – إلى أصل إفريقي غير مترومن.
- احتلّ الدوّارون مكانة اجتماعية وضيعة، رغم أن نصوص الكتاب الكاثوليك (نصوص القديسين أوبطا الميلي وأوغسطين خاصة) تشير إليهم على أنهم كانوا خليطا من اللصوص وقطاع الطرق والخارجون عن القانون.
- لا يمكننا قبول هذه النظرة الأحادية لأن الكاثوليك هم خصوم الدوّارين فكان من الطبيعي أن يصفوهم بتلك الأوصاف.
- إنّ الاشتقاق اللغوي لكلمة "دوارين" Circumcelliones بأنّهم: أولئك الذين يدورون ويحومون حول مخازن المؤن ومستودعات الحبوب (Horea) الموجودة في الضيعات النوميدية، وكما أن Cellas rusticanas لا تعني بيوت الرهبان ولا أضرحة الشهداء بقدر ما تشير إلى الأهراء الريفية.
- كان الدوّارون -على الأرجح-جماعات من الرحّل تبحث عن العمل في الضيعات خلال المواسم الفلاحية (حصاد، قطف العنب والزيتون) وهي تجوب مختلف الأرياف والبوادي الإفريقية، وقد تحصل على مبتغاها باستعمال القوة. وما دفعها إلى ذلك الضيم الاجتماعي والاستغلال الاقتصادي الذي مارسه كبار الملاك بمباركة السلطة الرومانية.
- كان من الطبيعي، أن واقع الدوّارين الاقتصادي كعمال فلاحيين متنقلين لا ينفي أن يكون لهم واقعا دينيا،

لتطلق عليهم عدة تسميات ونعوت "كجنود الله" و"عساكر الدوناتية" و"المصارعين" و"جنود المسيح" وغيرها، وكانوا خلال ثورتهم تلك التي استهدفت الكنائس والأساقفة الكاثوليك، والسلطة الزمنية الرومانية حليفتهم، كانوا يزورون أضرحة الشهداء. فلا يجوز إذن تجريد الدوّارين من كل السمات التاريخية التي ظهروا بها خلال الصراع الطويل بين الكاثوليكية والدوناتية على مدى قرن من الزمن (٣١١م-٤١١م).

- تشكل حركة الدوّارين –رغم انتمائها إلى الكنيسة الدوناتية–حركة مستقلة لها أهدافها ومبادئها وتنظيمها وغاياتها الخاصة، عكس ما ذهبت إليه الكتابات الكاثوليكية التي تعتبر الدوارين دائما عساكر الدوناتية ورؤوس رماحها. وعلى هذا، يمكن القول إن العلاقات بين حركة الدوارين والحركة الدوناتية كانت – قبل سنة ٣٤٧م–تتسم بنوع من الاستقلالية وبعيدة عما يمكن أن نصفه بالتحالف. إلا أن أحداث بغاي سنة ٣٤٧م كانت منعرجا حاسما دفعت بالحركتين إلى التحالف لمواجهة الكنيسة الكاثوليكية والسلطة الرومانية.
- كانت نوميديا وبغاي تحديداً مهد ومعقل الدوناتية وقلعتها الحصينة منذ نشأة الحركة حتى نهايتها. وقد ظلت الأرياف الحصن الحصين للكنيسة المنشقة. فلا غرابة إذن أن تكون مقاومة البعثات الإمبراطورية عنيفة في هذا الإقليم من المغرب القديم دون غيره. لذلك كانت نوميديا نقطة التقاء بين التمرد الاجتماعي الذي يمثله الدواورون والتمرد الديني الذي تمثله الدوناتية.
- تظافرت عدة عوامل دفعت الدوّارين إلى مناهضة السلطة الزمنية الرومانية، والذين كانوا يرون في مقاومتهم تلك حربا مقدسة ضد الكاثوليك من جانب، وحربًا اجتماعية ضد الأسياد والملاك الذين يشخصون الوجود الروماني من جانب آخر. وكأن الدواورون بتدخلهم في الصراع الديني بين الدوناتية والكاثوليكية لم يكن دفاعًا عن كنيسة "دوناتوس" ولا ضد الكنيسة الكاثوليكية بقدر ما كان مناهضًا للسلطة الرومانية التي كانت تمثل بالنسبة لهم جهازا قمعيا يسعى للحفاظ على الأوضاع القائمة.

الملاحق

fig 1. Photo Rabie

fig 2. Photo Rabie

الشكل رقم (١)

نقيشتي "أوبطاتوس الجيلدوني" بكنيسة تيمقاد

١-فسيفساء هندسية تحمل نقيشتي "أوبطاتوس الجيلدوني" بكنيسة تيمقاد، وجدت النقيشة الأولى عند مدخل البهو وتحمل الكتابة الآتية:

HAEC LUBENTE / SACERDOTE
D (EI) OP/TATO PERFECTE

وترجمتها كالآتي: "أنهيت هذه الأعمال حسب رغبة أوبطاتوس تمامًا"

٢-النقيشة الثانية (مشوهة) وجدت في وسط الباحة المعمدة وتحمل الكتابة الآتية:

QUANTA [LAUS] NOMINI [ILLIUS]? ...

وقد تشير إلى اسم كاتب النقيشة: "كوانتالوس نومينيليوس"

المصدر: عولمي الربيع، المسيحية في بلاد المغرب القديم ودورها في أحداث القرنين الرابع والخامس الميلاديين، أطروحة دكتوراه في التاريخ القديم، إشراف: الطاهر ذراع، جامعة باتنة-١، الجزائر ٢٠١٥-٢٠١٦، ص ٦٧٠.

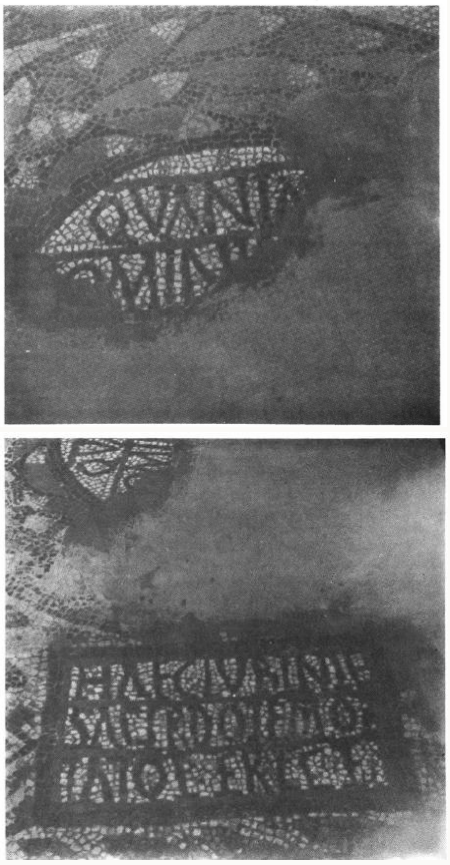

الشكل رقم (٢)

فسيفساء لكتابة لاتينية تحمل اسم "أوبطاتوس الجيلدوني"

عثر عليها بالبازيليكا الكبرى بالحي الغربي لمدينة تيمقاد

المصدر:

Eugene Albertini, Un témoignage épigraphique sur l'évêque donatiste Optât de Timgad, dans: C.R.A.I, 1, 1939, p. 100-103.

الشكل رقم (٣)

المجمعين المسيحيين الكاثوليكي والدوناتي بمدينة تيمقاد

المصدر:

Geo Report, Archaeology and satellite imagery, Pleiades Archaeology Collection, Airbus Defence and Space 2014.

الشكل رقم (٤)

ملحقات البازيليكا منها منزل الأسقف أوبطاتوس بمدينة تيمقاد

مصدر الصورة: موكاح فازية، العمارة الدينية المسيحية في مدينة تيمقاد، دراسة أثرية، مذكرة ماجستير في الآثار القديمة، جامعة الجزائر ٢، ٢٠١١-٢٠١٢، ص ١٢٤.

الإحالات المرجعية:

(١) **الريفيون الأوراسيون،** أطلقت هذه التسمية على الدوّارين، **الريفيون:** **(the rural)** لأنّهم كانوا يشكّلون فئة اجتماعية (أوردو- Ordo) تتألف من رجال أحرار يعيشون في الأرياف النوميدية، وينتمون-في معظمهم-إلى أصل إفريقي غير مترومن. أمّا **الأوراسيون:** (Auresians) فلأنّ حركتهم الثورية انطلقت من نوميديا (الجزائر القديمة) وتحديدا من مدينة بغاي (بولاية خنشلة حاليًا) مهد ومعقل الحركة الدوناتية وقلعتها الحصينة منذ نشأة الحركة حتى نهايتها سنة ٤١١م، وهي التي تقع في قلب جبال الأوراس (شرق الجزائر) هذه المنطقة التي صدّت كل الغزاة عبر العصور. كما كانت بغاي قلعة الكاهنة ملكة البربر التي قاومت الفتوحات الإسلامية في القرن السابع الميلادي. وقد ظلّت الأرياف الحصن الحصين للكنيسة المنشقة. فلا غرابة إذن أن تكون مقاومة البعثات الإمبراطورية عنيفة في هذا الإقليم من المغرب القديم دون غيره. لذلك كانت نوميديا نقطة التقاء بين التمرد الاجتماعي الذي يمثله الدوّارون والتمرد الديني الذي تمثله الدوناتية.

(2) Lancel (S.), Aux origines du Donatisme et du mouvement des Circoncellions, (C.T. ,57-60), 1967, pp 183-188.

(3) Vannier (O.), les Circoncellions et leurs rapports avec l'église Donatiste d'Après le Texte d'Optat, Rev. Afri., n° 67, 1932, pp.13-28.

(4) Brisson (J.P.), Autonomisme et Christianisme en Afrique Romaine, Paris, , 1958, p.328.

(5) Brisson (J.P.), .), Autonomisme et Christianisme., pp.350-353.

(٦) وردت أول إشارة إلى الدوّارين في كتاب أوبطا الميلي "ضد الانشقاق الدوناتي" (De Schismate Donatistarum) والذي يعود تأليفه إلى حوالي ٣٦٦-٣٦٧م. - Monceaux (P.), Histoire Littéraire de l'Afrique Chrétienne depuis les origines Jusqu'a l'invasion arabe, Ernest Leroux, Paris, 1901-1923, t. V, pp. 241-263.

(7) Optat (St.), III, 4.

(8) Monceaux (P.), .H. L. A. C., IV, p.180.

(9) Optat (St.), III, 4.

(10) Augustin (St.) Epist., CVIII, 6, 18.

(11) Optat (St.), III, 4.

(12) Vannier (O.), Op.cit., p.1.

(١٣) Félix Gaffiot, Dictionnaire Abrégé Latin Français., , Paris, 1936. p. 103-111 : Cella, Circum.

(14) Ibid., p.103: « cella : 1° endroit où l'on serre qq. ch., grenier, magasin, cellier : cella Vinaria, Olearia, Penaria.

(15) Augustin (St.), Enarr. in Psalm., CXXXII, 3.

(16) Id., Cont. Gauden., I, XXVII, 32.

(١٧) **نذكر منهم:**

-Monceaux (P.), Histoire Littéraire de l'Afrique Chrétienne depuis les origines Jusqu'a l'invasion arabe, Ernest Leroux, Paris, 1901-1923, IV, p.180.

-Courtois (Ch.), les vandales et l'Afrique, Paris, 1955, p. 144.

-Brisson (J.P.), Autonomisme et christianisme…, 1958, p.332

(18) Frend (W.H.C.), The Cellae of the African Circumcelliones, J.T.S, 1952, pp.89-90.

(19) Berthier (A.), les vestiges du christianisme antique dans la Numidie centrale, Alger, 1942, pp. 139,147.

(20) Frend (W.H.C.), Circumcelliones and monks, J.T.S, vol. II, new series, pp.546-548

(21) Calderone (S.), Circumcelliones, Parola del Passato, vol. II, Fasc. CXIII, 1967, p.102.

(22) Optat (St.), III, 4 ; Vannier (O.), Op.cit., p.17.

(23) Augustin (St.), Cont. Cres., IV, L, 60; Cont. Epist. Parmen., I, XI, 17, II II, 6

(24) Optat (St.), III, 4.

(25) Saumagne (Ch.), Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers, les Circoncellions d'Afrique, A.H.E.S., T.VI, n° 28, 1934, (pp.351-364), p. 357.

(26) Cod.Theod., XVI, 5, 52.

(27) Kolendo (J.), « Sur la législation relative aux grands domaines de l'Afrique romaine », R.E.A., LXV, 1963, p.83.

(28) Martroye (F.), « la répression du Donatisme », M.S.N.A.F., t. 78, Paris, 1914, p.134..

(29) Saumagne (Ch.), Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers…, p.353.

(30) Gagé (J.), les classes sociales dans l'empire romain, p.39 ; Fredouille (J.C.), Dictionnaire de la civilisation romaine, Paris, Larousse, 1968, p. 66 ; Félix Gaffiot, Dictionnaire Abrégé Latin Français, p.438, (col. 3 : ordo, ordines : ordre, classe sociale, (Sénateurs, Chevaliers, Plébéiens à Rome).

(٣١) الباحثان هما :

-Brisson (J.P.), Autonomisme et christianisme… pp. 335-336.

-Tengström (E.), Donatisten und Katoliken… ., Göteborg, 1964, pp.27-31.

(32) Saumagne (Ch.), Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers…, p.356.

(33) Brisson (J.P.), Op.cit., p.355-356.

(34) Tengström (E.), Donatisten und Katoliken Göteborg, 1964, pp. 27-31 ; d'après Lancel (S.), C.R. de Tengström, R.E.L., 1965, P. 638.

(35) Saumagne (Ch.), Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers…, pp. 355,358.

(36) Brisson (J.P.), Op.cit., p. 3336

(٣٧) أذكر منهم: سارج لانسال وكالدرون.

- Lancel (S.), Idem

- Calderone (S.), Op.cit., p.89.

(38) Cod. Theod., XVI, 5-54.

(39) Saumagne (Ch.), Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers…, pp.356-357.

(40) Saumagne (Ch.), Ibid., p.357.

(41) Frend (W.H.C.), Circumcelliones and Monks, Op.cit., p.549.

(42) Optat (St.), III, 4.

(43) Augustin (St.), Contra Epistulam Parmeniani, I, 11, 18; Optat (St.), I, 26.

(44) Brisson (J.P.), Autonomisme et christianisme…, p.338.

(45) Augustin (St.), Epist., CVIII, 5,14.

(46) Hamman (A.G.), la vie quotidienne en Afrique du nord au temps de Saint- Augustin, Paris, 1979, p.60.

(47) Augustin (St.), Cont. Cresc., VI, L, 60.

(48) Augustin (St.), Cont. Cresc., VI, L, 61.

(49) Félix Gaffiot, Dictionnaire Abrégé Latin Français., p.111, (circuitus=action de faire le tour, circuitors= ceux qui rôdent autour).

(50) Augustin (St.), Cont. Gauden., I, XXVII, 31- XXIX, 33.

(51) Optat (St), III, 4.

(52) Augustin (St.), Cont. Litter. Petil., II, 83,184.

(53) Augustin (St.), Epist., CVIII, 5, 14.

(54) Félix Gaffiot, Dictionnaire Abrégé Latin Français., p.40. Agreste, paysan, grossier, inculte, brut : Agreste=Agrestis

(55) Monceaux (P.), R.H.R., t. 64, 1911, p.42.

(56) Augustin (St.), Cont. Cresc. , III, XLIII, 47.

(57) Ibid., III, XLII, 46.

(58) Monceaux (P.), H.L.A.C., le Donatisme, IV, 1912.

(59) Vannier (O.), les circoncellions et leurs rapports avec l'église donatiste d'Après le Texte d'Optat, Rev. Afri., n° 67, 1932, pp.13-28.

(60) Brisson (J.P.), Autonomisme et Christianisme dans l'Afrique Romaine, Paris, 1958.

(61) Saumagne, Ouvriers agricoles, pp. 351-364.

(62) Tengström (E.), Donatisten und Katoliken… ., Göteborg, 1964, pp. 27-31 ; d'après Lancel (S.), C.R. de Tengström, R.E.L., 1965.

(٦٣) إريك تنغستروم (Erik Tengström) (١٩١٣–١٩٩٦م)، عالم فلكي وجيوديزي (علم مساحة الأرض) سويدي.

(64) Calderone (S.), Circumcelliones, Parola del Passato, vol. II, Fasc. CXIII, 1967, p.102.

(65) Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 180.

(66) Ibid., IV, p. 181.

(67) Saumagne (Ch.), Ouvriers Agricoles…, pp. 353-354.

(68) Vannier (O.), les Circoncellions et leurs rapports avec L'église Donatiste d'Après le Texte d'Optat, Rev. Afri., n°.67, 1926, pp.13-28.

(69) Vannier (O.), Ibid., pp. 26-27.

(70) Saumagne (Ch.), Ouvriers agricoles…, p. 359.

(71) Frend (W.H.C.), Circumcellions and monks, J.T.S., pp. 542-549.

(72) Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, P.181.

(73) Augustin (St.), Psalmus Contra Partem Donati, 144-163.

(74) Frend (W.H.C.), Circumcellions and monks, Op.cit., p. 543

(75) Augustin (St.), Cont. Gauden., I, XXVII, 31-XXIX, 33.

(76) Frend (W.H.C) Circumcellions and monks, Op.cit., p. 543.

(77) Simon (M.), le Judaïsme Berbère dans l'Afrique Ancienne, Revue d'Histoire et de philosophie religieuse (R.H.Ph.R), XXVI, Strasbourg, 1946, p. 21 ; (repris dans ; Recherches d'histoire Judéo- Chrétienne, Paris –la Haye, 1962, p.46 ; Monceaux (P.), H. L. A.C., IV, p. 181 ; Moliner- Violle, Timgad, ses fouilles et ses découvertes, F.Soldati, Batna, 1891, p.12.

(78) Brisson (J.P), Autonomisme et christianisme…, Op .cit, p.341.

(79) Lancel (S.), C.R. de Tengström, R.E.L., 1965, p. 639.

(80) Calderone (S.), Circumcelliones…., Op.cit., p.108.

(81) Frend (W.H.C.), J.T.S., 1952, pp. 87-90.

(82) Calderone (S.), Op.cit., pp. 100-101.

(83) Ibid., pp. 102-105.

(84) Félix Gaffiot, Dictionnaire Abrégé Latin Français., pp. 308-310.

(85) Calderone (S.), Op.cit., pp. 103.107.

(86) Augustin (St.), Ennar. In Psalm., 10, 5; Epist., 44, 9.

(87) Id., Cont. Litter. Petil., I, XXIV, 26.

(88) Id., Cont. Epist. Parmen., III, III, 18.

(89) Augustin (St.), Brevic. Collat., III, VIII, 13. Contra. Gauden., I, XXVII, 31. XXIX.33.

(90) Id., Cont. Litter. Petil., II, XXXIX, 93.

(91) Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.65 ; Eugène Albertini, Un témoignage épigraphique sur l'évêque donatiste Optat de Thamugadi, In: C.R.A.I., 83e année, N. 1, 1939, (pp.100-103), p. 100.

(٩٢) **أوبطاتوس الجيلدوني**، هو أسقف تيمقاد الدوناتي من سنة ٣٨٨م إلى سنة ٣٩٨م، يلقب بـ" الجيلدوني" نظرًا لتلك العلاقة المتينة التي كانت تربطه بالزعيم الموريطاني الثائر على روما "جيلدون"، وحسب أوغسطين فإنه كان يترأس "عصابات" مسلحة لكنه لا يشير إلى أنها من الدّوارين. لعب دورًا هامًا في إرجاع بعض الأساقفة الماكسيميانيين إلى حظيرة الدوناتية باستعمال العنف، مات في السجن سنة ٣٩٨م. Augustin (St.), Cont .Litter. Petil., II, XXIII, 53 ; XCII, 109 ; Frend (W.H.C.), The Donatist Church…, pp.208-266; Albertini (E.), Un témoignage épigraphique sur l'évêque donatiste Optat de Thamugadi, In: C.R.A.I., 83e année, N. 1, 1939. pp. 100-103.

(93) Augustin (St.), Cont.Epist. Parmen., II, II, 4 .

(94) Marrou (Henri -Irénée), Sur une inscription concernant Optat de Timgad, in Christiana tempora. Mélanges d'histoire, d'archéologie, d'épigraphie et de patristique. Rome: École Française de Rome, 1978. (Pp. 145-148).